من المُحاكاة إلى الإبداع الذّاتيّ
دراسة تحليليّة في تطوّر الأدب الأندلسيّ واتّجاهاته الجماليّة

د. ناصر جمعة السّيابي
جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الرّباط
المغرب

ملخّص:

من المتعارف عليه أنّ الأدب كغير من الفنون يؤثّر ويتأثر بمحيطه السّياسيّ والاجتماعيّ، وليس الأدب الأندلسيّ بمنأى عن ذلك. وهذا ما نروم إبرازه في بحثنا هذا. فبالرّغم من اتّخاذنا للمقاربة التّاريخيّة كمنهج بحث، إلاّ أنّنا لم ننظر إلى الأدب الأندلس من زاوية نظر تاريخيّة فقط بل رُمنا النّظر إليه من زاوية نظر ناقد أديب مُثقّف. فتتبّعنا الحركة الثّقافيّة عامّة والأدبيّة خاصّة. وذلك من خلال تقصي بدايات نشأة الأدب الأندلسيّ وتتبّع مراحل نشأته وتطوّره ونضجه ابتداء من عهد الولاة مُرورا بعهد الإمارة انتهاءً بعهد الطّوائف مرحلة الأوج والازدهار.

الكلمات المفاتيح: الأدب، الأندلس، الحركة الأدبيّة، النّشأة، التّطوّر، الازدهار.

Abstract:

It is well established that literature, like other forms of art, both influences and is influenced by its political and social environment. Andalusian literature is no exception to this dynamic, and this study seeks to highlight that relationship. Although this research adopts a historical approach, our perspective extends beyond a merely chronological view. We approach Andalusian literature through the lens of a cultured critic and writer, tracing both the general cultural movement in al-Andalus and, more specifically, its literary development. The study investigates the early emergence of Andalusian literature, following its stages of growth, maturation, and refinement—from the era of the governors, through the emirate period, and culminating in the epoch of the Taifas, the era of artistic and intellectual flourishing.

Keywords: Literature, al-Andalus, Literary Movement, Emergence, Development, Flourishing

مقدّمة:

تتشابه الحركات الأدبيّة العربيّة في ظروف نشأتها والعوامل المساعدة على ذلك. فالثّقافات والعلوم المختلفة "في المجتمعات الإسلاميّة كانت متقاربة أو متشابهة حيث بدأت بذرة صغيرة، ثمّ ما لبثت بفضل الرّعاية والعناية والاهتمام أن نمت وازدهرت وأثمرت، وهذا ما حدث في المشرق وهو قريبا ممّا حدث للعلم والثّقافة في الأندلس" (دويدرا، 1994، ص381). ولعلّ أفضل دليل على ذلك ما حصل في بدايات الفتوحات الإسلاميّة فقد جاء الإسلام "فمهّد الأرض، ووضع العلوم الدّينيّة والعربيّة، ومضى زمن أخذت تتطوّر فيه هذه العلوم، ثمّ كان الاتّصال بالأمم الأخرى ذات الحضارة والعلم والثّقافة، فاقتبس المسلمون من علومها وترجموا بعض كتبها إلى العربيّة، وصحّحوا فيها وأضافوا إليها، حتّى أخرجوا بعد ذلك نتاجا عظيما من العلم والثّقافة" (دويردار، 1994م، ص381). فالأدب الأندلسيّ ليس في منأى عن ذلك كما ذكرنا سابقا بل هو نسخة مصغّرة من تاريخ الأدب العربيّ عامّة. فهو نتاج الأدب العربيّ في الأندلس خلال الحكم الإسلاميّ. وقد تميّز بالثّراء والتّنوّع في مجالات مختلفة كالشّعر والنّثر والقصّة والمناظرات. قد ظهرت أعمال كثيرة اختلفت فيها لغات الكتابة والتّعبير، فمنها ما كُتب بالعربيّة، والعبريّة، وبعض اللّغات المحلّية. وظهرت أيضا أنواع أدبيّة جديدة مبتكرة كالموشّحات والأزجال... وفيما يلي تتبّع للحركة الثّقافيّة والأدبيّة في بلاد الأندلس وفق التّسلسل التّاريخيّ الّذي مرّت به هذه المنطقة.

1. البدايات والتّأسيسيّة، فترة الولاّة.

لم يولِ العرب المسلمون في بداية فتحهم للأندلس اهتماما كبيرا لا بالأدب ولا بالعلم، بل كان انشغالهم موجّها أكثر إلى كلّ ما هو عسكريّ كالعدّة والعتاد والخطط الحربيّة وأمجاد الأبطال والقادة العسكريين... فقد "انشغلوا في بدايات الفتح بالحملات العسكريّة الّتي سارت إلى الشّمال لإخضاع المتمردين الإسبان أو العبور وراء جبال البرتات لوضع حدّ لهجوم الفرنجة، أو فتح أرض جديدة وراء الجبال."(السّامرائي، 2000، ص313) ما نستنتجه من هذا الكلام "أنّه لم يكن عصر علم، وإنّما كان عصر فتح وغزو، وصراع سياسيّ بين العصبيّات القبليّة من أجل الحكم."(عتيق، بلا تاريخ، ص149). تقودنا الحاجة ههنا إلى طرح سؤال محوريّ وهو: أيّهما أولى بالاهتمام الثّقافة أم التّاريخ أم السّياسة على الرّغم من تداخلها؟ فالسّياسة تؤثّر في الثّقافة والتّاريخ، والتّاريخ يؤثّر في السّياسة والثّقافة، والثّقافة تؤثّر في السّياسة والتّاريخ. بل يمكن القول أنّ السّياسة قد تأتي في اتّجاه مجرى الثّقافة، وأنّ تغيّر السّياسة قد يتطلّب تغيير الثّقافة أوّلا.

إذا أنكرنا وجود حياة ثقافيّة في فترة الولاة، فنحن بذلك نجحد مجهودات الفاتحين الأوائل للأندلس. قد كانت " اللّبة الأولى لبناء صرح حضارة عربيّة فيها، فقد دخل الأندلس في هذه الفترة نفر من الصّحابة والتّابعين، الّذين كانوا على حظّ كبير من المعرفة الدّينيّة، الّتي وظّفوها في تسيير أمور المسلمين من خلال تقديم الفتاوي المتعلّقة بأمور الدّين، كتقسيم الغنائم، وتحديد الضّرائب وتخطيط المساجد، وتفقيه النّاس. وأغلب الظّنّ أنّ هؤلاء قد أسّسوا أوائل المدارس الأندلسيّة، حين أنشئت أوّل المدارس في إشبيليّة وغيرها." (هيكل، 2013، ص60)

إنّ من المفاهيم الإسلاميّة الّتي ظهرت مع بدايات فتح الأندلس هي المفاهيم ذات النّفثات الدّينيّة الاجتماعيّة: كالتّسامح بين المسلمين واليهود والنّصارى من خلال السّماح بممارسة الطّقوس الدّينيّة والشّعائر الرّوحانيّة مقابل الجزيّة. كما انتشرت العربيّة والتّحوّل عن الحروف اللاّتينيّة. فانتشرت بذلك علوم اللّغة العربيّة من نحو وصرف وبلاغة... وبدا التأثّر واضحا بالأدب المشرقيّ عندها شعرا ونثرا. وهذا ما سنبيّنه في مناسبات لاحقة. يفهم من هذا أنّه "لم يهتمّ أصحاب هذا العصر بالعلوم، إلاّ ما تعلّق بعلوم الشّرعيّة وعلم اللّغة (ابن الصاعد، 1913، ص62). فالقرآن كان في الأندلس كغيره من البلدان العربيّة المسلمة المصدر الأوّل للتّشريع وتنظيم حياة المسلمين "ولم تمسّ الحاجة إلى اللّجوء والاستعانة بسنن الرّسول –ص– إلاّ بعد أنّ احتكّ أهل الإسلام بنظم الشّعوب المفتوحة في المشرق والمغرب، ووجدوا أنفسهم –نتيجة لهذا الاحتكاك – أمام مشاكل تشريعيّة وقانونيّة شديدة التّعقيد (النّشيا، بلا تاريخ، ص02). والكثير من المسلمين لا يصدّقون ذلك فهم احتاجوا إلى السّنة النّبويّة منذ لحظة نزول الوحي من خلال مراقبة الرّسول في أعماله وأفعاله من أعمال صلاة وصوم وحجّ...

تمثّلت البوادر الأولى للأدب الأندلسيّ في تلك النّصوص النّثريّة القصيرة أو القصائد القليلة والّتي كانت نتاجا عن تمسّك المسلمين بتعاليم دينهم الفتيّ، وبهدف دعوة السّكّان الأصليين إلى الدّخول في الإسلام. من بين هذه الإرهاصات الأدبيّة نذكر ما نُسب إلى فاتح الأندلس الأوّل "طارق بن زياد يقول فيها: (المقري، 1997م، ص265)

ركبنا سفينـا بالمجاز مقيرا

عسى أن يكون الله منا قد اشترى

نفوسا وأموالا وأهلا بجنة

إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسـرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا

إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

بالإضافة إلى تلك الخطبة الشّهيرة الّتي نُسبت إليه، والّتي قال فيها: " أيها الناس، أين المَفَرُّ؟ البحرُ من ورائكم، والعدوُّ أمامَكم وليس لكم واللهِ إلا الصدقُ والصَبْرُ. واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أَضْيَعُ من الأيتام في مَأْدُبَةِ اللِّئام، وقد اسْتَقْبَلَكم عدوّكم بِجَيْشِهِ وأَسْلِحَتِهِ، وأَقْواتُه موفورةٌ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفُكم ولا أقواتَ إلا ما تَسْتَخْلِصُونَه من أيدِي عدوِّكم، وإن امْتَدّتْ بكم الأيامُ على افتقارِكم ولم تُنْجِزوا لكم أمراً ذهبتْ رِيحُكم، وتَعَوّضَتِ القلوبُ من رُعْبِها منكم الجَرَاءَةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذْلانَ هذه العاقبة من أمركم بِمُنَاجَزَةِ هذا الطاغية. (أبو بكر، د ت، ج1، ص314). ما تجدر الإشارة إليه أنّه لو صحّ نسبة هذيْن النّصيْن لطارق بن زياد " لاعتبرا أوّل أدب عربيّ ظهر في الأندلس خلال عصر الولاّة" (السّامرائي، 2000، ص314)

إنّ من بين الوافدين على الأندلس تلك الفترة بعض ممّن يقرضون الشّعر ومنهم "أبو الأجرب جعونه بن الصّمة"، الّذي اشتهر بهجاء "الصّميل بن حاتم" رئيس القيسيّة آنذاك، وعُرف بمدحه له بعد أن تمكّن منه وعفا عنه، ويُقال أنّ هذا الشّاعر كان في مرتبة "جرير "و"الفرزدق"، ولو أنّه أُنصف لاشتهر بشعره (هيكل، 2013، ص61-62) وكذلك يرى أنّ أبا نواس سأل عنه "عبّاس بن ناصح الأندلسيّ"، وطلب منه أن يسمعه شيئا من شعره، ومع كلّ هذا لم يصلنا من شعره إلاّ القليل النّادر من ذلك قوله: (المغربي، 1955م، ص132)

ولقد أراني من هواي بمنزل

عال ورأسي ذو غدائر أفرعُ

والعيش أغيد ساقط أفنانه

والماء أطيبه لنا والمرتعُ

إنّ من الشّعراء الّذين برزوا في هذه الفترة نذكر الشّاعر: أبو الخطّار حسام بن ضرار، والّذي كان من أشراف القحطانيين بالأندلس وهو واحد من الّذين شهدوا فتوح المسلمين بإفريقيا وأبلوا بلاء حسنا وكان "أمير الأندلس ووليها بعد قتل أميرها عبد الملك بن قطن... فدانت الأندلس له وخدمت الفتنة به وفرّق جموعها وأخرج عنها من كان سببها... (المغربي، 1955م، ص276-277) وهو كسابقه لم يعثر إلاّ على القليل من شعره، والّذي منه ما قاله في معاتبته الحكّام المروانيين لنصرتهم للقيسيين على حساب اليمنيين (المغربي، 1995م، ص277)

أَفَأْتمْ بني مروان قيساً دماءَنا

وفي اللهِ إن لم تُنصْفوا حَكَمٌ عَدْلُ

كأنكمُ لم تشهدوا مرْجَ راهطٍ

ولم تعلَموا من كان ثَمَّ له الفَضْلُ

وقيناكمُ حرَّ القنا بُنحورِنا

وليسَ لكم خيلٌ سِوانا ولا رَجْلُ

فلما بلغْتُمْ نيلَ ما قد أردْتُمُ

تغافلتمُ عنا كأنْ لم نكنْ لكمْ

صديقاً وأنتمْ ما علِمْتُ لها فِعلُ

من المفترض أنّ هُناك شعراء آخرون نظموا الشّعر في هذه الفترة الّتي اتّسمت بعدم الاستقرار، وهذا ما جعل الكثير من الشّعراء والقصائد تختفي. فلم تعرف ولم يُعرف قائلها على خلاف " هذان شاعران، تردد شعرهما في الأندلس خلال فترة الولاّة، ومن المحقق أنّهما لم يكونا وحدهما اللّذيْن عُرفا بقول الشّعر في تلك الفترة، وإنّما كان هنالك آخرون نُسيت أسماؤهم وضاعت أشعارهم مع الكثير ممّا نُسي وضاع من تراث الأندلس وخاصّة في هذه الحقبة المتقدّمة المضطربة من تاريخها (هيكل، 2013، ص62)

نفهم من خلال ما سبق أنّ الإنتاج الثّقافي عامّة والأدبيّ خاصّة كان متواضعا للغاية عهد الوّلاّة وذلك لعدم الاستقرار السياسيّ وانشغال الفاتحين بأمور الحرب، لكنّ هذا لم يمنع من وجود "بعض الآثار الشّعريّة القليلة، الّتي ترد على ألسنة بعض الولاّة والزّعماء" (عنان، 1997م، ص691)

2. مرحلة النّشأة، عهد الإمارة.

بدأت الحياة الثّقافيّة تتضّح شيئا فشيئا مع توافد الأمويين على الأندلس والاستقرار فيها، وهذا ما حصل فعلا في عهد الإمارة، فالأندلس قد "خطت أولى الخطوات نحو الثّقافة الأندلسيّة الحقّة، لقد ساعدها في ذلك وفود كثير من الأمويين وأنصارهم إلى الأندلس، إلى جانب دعوة بعض العلماء المشارقة للاستفادة من علمهم وأدبهم ومن بينهم على سبيل المثال: استدعاء "أبي القالي" صاحب كتاب "الأمالي" من بغداد إلى الأندلس، من قبل الخليفة عبد الرّحمن النّاصر، حيث لقيَ عنده الحظوة والكرم، واختصّ بابنه الحكم المستنصر وأورث أهل الأندلس علمه" (عتيق، بلا تاريخ، ص150)

كان أمر استقدام العلماء من المشرق إلى الأندلس منهجا يعتمده الكثير من الحُكّام، فمن بين الوافدين أيضا على الأندلس العلاّمة "أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي" عالم اللّغة والأدب والأخبار، والّذي جاء إلى الأندلس في ولاية "المنصور بن أبي عامر" ونال عنده مكانة رفيعة، فقد كلّفه بتأليف كتاب على نسجا على منوالي كتاب "الأمالي" سمّاه بـ"الفصوص". استطاع هذان الرّجلان أن يؤسّسا ثقافة مشرقيّة بالأندلس و "انتشر علم أبي القالي وأبي العلاء صاعد البغدادي بين أهل الأندلس، فكانا من أوائل واضعي أسس الثّقافة المشرقيّة بالأندلس في اللّغة والأدب (عتيق، بلا تاريخ، ص150)

لم تكن الحركة الثّقافيّة مقتصرة على الهجرة من المشرق إلى الأندلس فقط، بل كانت أيضا في حركة عكسيّة أي من الأندلس على المشرق عن طريق التّجارة البحريّة. فكانت فرصة للأندلسيين من السّكّان الوافدين أو السّكّان الأصليين "ممّن عملوا على التّبحّر في علوم المشارقة والأخذ منها. ثمّ العودة إلى الأندلس لنشر تلك العلوم بين أهله (عتيق، بلا تاريخ، ص151) ومن بين هؤلاء نذكر "الغازي بن قيس الّذي تتلمذ على يد الإمام مالك ثمّ عاد إلى الأندلس في عهد عبد الرّحمن الدّاخل، فأكرمه وعرض عليه القضاء فرفض واختار التّفرّغ لنشره علمه وأدبه، وغيره كثير ممّن مثّلوا الجيل الأوّل للثّقافة الأندلسيّة مثل عبد الملك بن حبيب ويحي اللّيثيّ وزياد بن عبد الرّحمن، وغيرهم (دويدار، 1994م، ص387)

نستنتج ممّا سبق أنّ هذه المرحلة مثّلت المرحلة الأولى لنشأة جيل أوّل من الأدباء الأندلسيين وعلمائها "لم يبق الأدب حكرا على الوافدين من المشرق كما كان الحال من قبل، وإنّما ظهرت النّماذج الأدبيّة الأولى، والّتي تعدّ تراث الأندلس بحقّ، وفيها تشكّلت الملامح الأولى لأدب هذا الإقليم الخاصّ (هيكل، 2013، ص81)

كان الشّعر الأندلسيّ في بداياته متأثرا إلى حدّ كبير بالمدرسة الشّعريّة المشرقيّة مع بعض الاختلافات البسيطة ومردّ ذلك كما قلنا تأثرا بالوضع الاجتماعيّ والسّياسيّ لتلك الفترة الموسومة بكثرة الحروب والغزوات والفتوحات "تتمثّل مظاهر هذا الاتّجاه المحافظ في أنّ الشّعر الأندلسيّ كان يهتمّ أكثر بالموضوعات التّقليديّة من فخر ومدح وحماسة، وما إلى ذلك ويسير على الأقدمين في بناء القصيدة ،وفي تجميع صورها غالبا من عالم البادية، وتأليف أسلوبها في الأعمّ من لغة تستوحي الذّاكرة والتّراث، أكثر ممّا تستوحي العصر والواقع." (هيكل، 2013م، ص81)

تجسيدا لما صرّحنا به في مقدّمة عملنا هذا في أنّ الأدب وليد زمانه، وأنّه ينشأ لصيقا بالعوامل الاجتماعيّة والسّياسيّة المحيطة به "فالفخر والحماسة من لوازم الصّراع والغلبة، وقد عرفت الأندلس كثيرا من ذلك في تلك الفترة، وفي غيرها والمدح أيضا من لوازم البيئة العربيّة القديمة وقد كانت البيئة الأندلسيّة تنطبع على – حد كبير – بالطّابع العربيّ." (هيكل، 2013م، ص84) وليس علينا أن نُقرّ بالتّأثر المتواصل للأدب المشرقيّ. فقد كان هذا لفترة ثمّ سرعان ما أسّس الأدب الأندلسيّ مدرسة خاصّة به خاصّة مع ظهور شعراء " أكثرهم أندلسيون مولدا ومنشأ وثقافة (هيكل، 2013م، ص91). من بين هؤلاء "عبد الرّحمن الدّاخل" وأبو المخشى" و"حسانه التميميّة" وعبّاس بن ناصح"...

ولأنّ المال قوام الأعمال، ولأنّ السّلطة الحاضنة الأولى للأدب للثّقافة عامّة والأدب خاصّة، كان لها – الثّقافة – حظّ من الازدهار في عهد الأمير عبد الرّحمن الأوسط (206هـ-238هـ) ازدهارا عظيما، حيث شهد عصره كثيرا من الهدوء والاستقرار واليسر والرّخاء (المقري، 1997م، ص347) لذلك أُطلقت على أيامه صفة "العروس" إذ اشتهر هذا الأمير بشغفه بالثّقافة ودعمه لها وكان هو الآخر شاعرا ذا همّة عاليّة مغرما بالفنون والعلوم، حريصا على مطالعة الكتب والمثاقفة مع مناطق ن بلدان أخرى.

استطاع "عبد الرحمن" أن يجمع حوله عددا كبيرا من الأدباء والشّعراء والمفكرين مثل العلاّمة والرّياضيّ والفلكيّ "عبّاس بن فرناس" و"يحي الغزال" وشاعر البلاط الخاصّ به "عبد الله بن الشّمر بن نمير" وشاعر والده الحاكم "عبّاس الجزيري" و"عبيد الله بن قرمان بن برد" مولى الدّاخل وغيرهم كثير. ثمّ سُرعان ما جاء بعد هذا العهد "عهد الخلافة، الّذي نهضت فيه الحركة العلميّة والثّقافيّة في الأندلس نهضة شاملة، وتطوّرت تطورا عظيما وكان من مظاهر وضوح الشّخصيّة العلميّة الثّقافيّة للأندلس، واستقلالها إلى حدّ كبير عن المشرق (دويدار، 1994م، ص388)

يُعتبر هذا خير دليل على أنّ الاستقرار السّياسيّ وتشجيع السّلطة على الحياة الثّقافيّة كلاهما يُنمّي الثّقافة ويزيد من الإنتاج الثّقافيّ، كما وكيفا، كان هذا ما حصل في عهد "عبد الرّحمن النّاصر" وابنه "الحكم المستنصر". من مظاهر الازّدهار ما رُويَ عن أنّ خزانة العلوم والكتب بدار بني المروان، كانت "عدد الفهارس الّتي فيها تسميه الكتب أربع وأربعون فهرسا، وفي كلّ فهرسه عشرون ورقة، ليس فيها إلاّ ذكر أسماء الدّواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليها بضائعه في كلّ قطر" (المقري، 1997م، ص385-386)

من مظاهر الازدهار أيضا في هذه الفترة ما وصلنا من أخبار عن بروز العديد من الشّعراء والعلماء. فكان من اعلامها "إلى جانب عميدهم ابن عبد ربّه، صاحب العقد الفريد، محمّد بن عمر بن لُبابة وهو من أهل قرطبة... كان حافظا لأخبار الأندلس، وله حظّ من النّحو والشّعر..." (عنان، 1997م، ص696) ومن الشّعراء الّذين لمع صيتهم، الشّاعر ابن هانئ الاندلسيّ والوزير جعفر بن عثمان المصحفيّ ومن الكتّاب والبلاغيين نجد في مقدّمتهم الكاتب "النّاصر الأثير عبد الله بن محمّد الزّجالي" بالإضافة إلى ظهور العديد من المؤرّخين منهم "أحمد بن محمّد بن موسى الرّازي" ومن أشهر مؤلفاته "أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم" وكتابه "الاستيعاب في أنساب أهل الأندلس" كما عاصره في نفس الفترة المؤرّخ الكبير "ابن القوطيّة"، وكان راويا متمكّنا حافظا لأخبار الأندلس وسِير أمرائها وأخبار علمائها وفقهائها وشعرائها وقدّ ألّف أشهر كتبه في التّاريخ تحت اسم "تاريخ افتتاح الأندلس".

استمرّت النّهضة الثّقافيّة والعلميّة ما بعد هذه الفترة في عهد "المستنصر" (350هـ- 366هـ). فكان هذا الحاكم رائد هذه الحركة الفكريّة والثّقافيّة العظيمة، إذ وصفه "المقري" بقوله: " إنّه كان حسن السّيرة، مكرما للقادمين عليه، جمع من الكتب ما لا يحدّ ولا يُوصف كثرة ونفاسة، حتّى قيل: إنّها كانت أربعمائة ألف مجلّد، وإنّهم لما نقلوها أقاموا ستّة أشهر في نقلها" (المقري، 1997م، ص394-395) ويُقال أنّ مكتبته الأمويّة تعدّ أعظم مكتبات العصور الوسطى على الإطلاق. وكانت تنافس مكتبة قرطبة ومكتبة بغداد. وقد ضمّت النّسخة الأولى من كتاب الأغاني للأصفهانيّ. ومن مآثر هذا الحاكم أيضا أنّه قد أنشأ مدارس بدائيّة لتعليم الأطفال الصّغار أحكام التّجويد وقواعد اللّغة لوجه الله تعالى. وقد تمّ التّشجيع على العلم والمعرفة بـ "اتّخاذه المؤدبين يعلّمون أولاد الضّعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع، وبكلّ ربض من أرباض قرطبة وأجرى عليهم المرتبات وعهد إليهم في الاجتهاد والنّصح، ابتغاء وجه الله العظيم..." (المراكشي، 2013م، ص226)

من بين الأدلّة الأخرى الّتي تُبرز مظاهر انتعاش الحياة الثّقافيّة نذكر: أنّه "ظهرت في هذه الفترة جمهرة من الشّعراء البارزين، وكان من في مقدّمتهم طاهر بن محمّد البغداديّ الوافد من المشرق إلى الأندلس وكان يعرف بالمهند، وكذلك محمّد بن مطرف بن شخيص، وكان من أهل الأدب البارع، ومن أعيان الشّعراء المجيدين، ونجد أيضا يحي بن هذيل وهو: من أهل العلم والأدب والشّعر الجيّد، وإلى جانب هؤلاء نجد أشهر شعراء هذا العصر، وهو يوسف بن هارون الرّماديّ القرطبيّ والّذي عُرف بشعره الهجائيّ، ولكنّه مدح الحكم المستنصر في أكثر من قصيدة. (عنان، 1997م، ص701-703)

استمرّ الأدب الأندلسيّ في نموّه وتطوّره وتنويع تجاربه بين الوافدين من المشرق والسّكّان الأصليين في عصر الحجابة، وهي الفترة التّاريخيّة الّتي برز فيها منصب "الحاجب" كسلطة سياسيّة فعليّة - وهو الوسيط بين الخليفة وبقيّة أفراد المجتمع - وقد تميّزت "الثّقافة الأندلسيّة في عهد الحجابة بقوّة الدّفع الذّاتيّ كانت سائدة في عصر الخلافة" (هيكل، 2013م، ص273).

إنّ من أبرز الحُجّاب الّذين اهتموا بالحياة الثّقافيّة والأدبيّة هو الحاجب المنصور فبرغم " ما كان عليه من الهيبة والرّهبة، فقد كان له حلم واحتمال، مع محبّة للعلم وإيثار للأدب وإكرام لمن ينتسب إليهما." (ابن الأبار، ص1985م، ص273). وذكر عنه، أنّه كان من عُشّاق المجالس الأدبيّة، والحلقات العلميّة، لدرجة أنّه كان لا يتخلّى عن الأدباء والكتّاب والشّعراء حتّى في حملاته العسكريّة، لتدوين غزواته وبطولاته أيّام الحرب. وليس هذا بغريب عن الرّجل وهو الّذي نشأ في بيت علم وأدب وسلك مسالك الأدباء والقُضاة، قبل أن تأخذه السّياسة. وما يعاب على هذا الرّجل هو أنّه رغم فكره المنير، لم يكن يظهر تسامحا مع الفلاسفة لأفكارهم الحرّة الجريئة. فقد عمل على مقاومة ما ينتجونه من دراسات وأطاريح فلسفيّة، إرضاء للعامّة، وكسبا لتأييد الفقهاء ورجال الدّين، وحماية للنّاس البُسطاء، وخوفا عليهم من الاتّصال بالعلوم العقليّة. وقد نتج عن هذه الاضطهاد والصّد أن "سكن أكثر من تحرّك للحكمة عند ذلك وخملت نفوسهم، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم ولم يزل أُولو النّباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ويظهرون ما يجوّز لهم فيه من الحساب والفرائض والطّب وما أشبه ذلك، إلى أن انقرضت دولة بني أميّة في الأندلس" (ابن الصّاعد، 1913م، ص66-67)

إنّ من المتعارف عليه أنّ الشيء إذا كثر وزاد كان لزاما علينا إخضاعه إلى الغربة والنّقد، وهذا ما صار بالفعل مع ظهور العديد من الإنتاجات الأدبيّة النّثريّة والشّعريّة " يذكر أنّ المنصور كان لديه مجلس في قصره يجتمع فيه العلماء والأدباء والشّعراء، وكان يشاركهم أحيانا في مناقشاتهم ويُدلي فيها آراءه ومواقفه، كما بلغ اهتمامه بالشّعر أن أنشأ ديوانا خاصّا سميّ (ديوان النّدماء)، مهمّته ترتيب الشّعراء في طبقات، وبذل العطاء لهم على أقدارهم ومراتبهم في الشّعر (دويدرا، 1994م، ص394-395)

لم يكن تأثّر الأدب بالوضع الاجتماعيّ والسّياسيّ تأثرا إيجابيّا دائما، بل قد يتأثر بها بصفة عكسيّة، من ذلك أنّ الأدب تأثّر بأحداث الفتنة تأثرا واضحا فـ" كان التّأثّر شرّا على بعض الأنواع الأدبيّة وخيرا على بعضها الآخر، ومن مظاهر الشّر انتشار أدب التّلهّي والنّفاق والتّفاهة، أو أدب الهروب بتعبير آخر. ومن مظاهر الخير ظهور أدب التّأمّل والتّذكّر والنّقد، أو أدب المراجعة بتعبير أعمّ. وقد كان الشّعر مجال النّوع الأوّل كما كان النّثر مجال النّوع الثّاني" (هيكل، 2013م، ص363-364). ورغم هذا برزت العديد من القصائد الشّعريّة ذات المعايير الفنيّة ممتازة". فلولا قلّة من الشّعراء الموهوبين الّذين تغلّبت طبيعتهم الفنيّة على ظروف الفتنة القاسيّة، لما وجدنا لهذه الفترة شعرا ذا قيمة كبيرة، لأنّ أحداث الفتنة حصرت الشّعر في دائرة ضيقة، وصرفت الشّعراء عن الفنّ الجادّ" (هيكل، 2013م، ص364) من هؤلاء نذكر أبو عامر بن شهيد وأبو محمد بن حزم وأبو مروان الطّبني وأبو عبد الله بن الحناط.

3. مرحلة الازدهار، عهد دول الطّوائف.

مع انقسام الدولة الأمويّة وتشتّتها، انقسم هذا الموروث الثّقافيّ والأدبيّ للأندلس الّذي كان زمن الخلافة الأمويّة، فعلى الرّغم من الصّراعات الدّاخليّة والتّناحر بين ملوك الطّوائف على السّلطة لم يمنعهم هذا من العناية بالأدب والثّقافة. وقد نتج عن هذه الانقسامات السّياسيّة نهضة الحياة الثّقافيّة والأدبيّة "نهضة بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الإسلاميّ، وقد كان هذا الازدهار نتيجة لعوامل كثيرة، أهمّها أنّ عصريّ الخلافة والإمارة كانا بمثابة إعدادات طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كلّ فرع من فروع الدّراسات، واختمرت اختمارا طويلا، وثانيها أنّ علماء قرطبة غادروها أثناء الفتنة وانتشروا في شتّى نواحي الأندلس، وكذلك تفوّقت في كلّ ناحية مجموعات الكتب الّتي كانت مختزنة في مكتبات قرطبة. وثالثها تلك الحريّة الّتي أباحها ملوك الطّوائف في شتّى نواحي الحياة الاجتماعيّة بما فيها النّاحية الدّينيّة" (بالنثيا، بلا تاريخ، ص13)

إنّ من أهم العوامل الذي شكّلت مرحلة ازدهار الأدب الأندلسي عهد الطّوائف، فمن كانوا على رأس السّلطة كانوا راعين للأدباء والشّعراء وكان البلاط ملتقى لمنتديات ثقافيّة وأدبيّة، ومجمع الأدباء والحُكماء والمثقفين فـ "معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشّعراء والعلماء، وكانت قصورهم منتديات زاهرة ومجامع حفّة للعلوم والآداب والفنون" (عنان، 1997م، ص423)

- **ملوك بني عبادة بإشبيليّة.**

كان الإنتاج الأدبيّ يختلف من طائفة إلى أخرى على حسب قوّة الطّائفة وضعفها، ففي مقدمتها تأتي دولة بني عباد بإشبيليّة، والّتي كانت من أعظم ملوك الطّوائف قوّة وجاها وملكا. فأسرة بني عباد عرفت ينبوغها في ميدان الأدب، خاصّة الشّعر ومن أبرز شخصياتها اللاّمعة نجد المعتضد بن عباد وولده المعتمد (عنان، 1997م، 424). كان المعتضد ذا ذوق أدبيّ رفيع وحسّ نقديّ عالٍ إلى جانب ما عُرف به من حنكة ومكر سياسيين. فجمع في بلاطه كبار الأدباء والشّعراء والمفكرين من أشهرهم الأديب الوزير "ابن زيدون" وكاتبه البزلياني. أمّا ابنه المعتمد فقد فاقت شهرته الأدبيّة شهرته السّياسيّة. فعرف بأدبه أكثر ممّا عُرف بسياسته، قال عنه صاحب الحلّة السّيراء: "كان صاحب باع واسع في الأدب ينظم وينثر، وفي أيّامه نفقت سوق الأدباء فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه" (ابن الأبار، 1985م، ص55)

إنّ المصادر الّتي وردت علينا كانت شاهدا على نبوغ إشبيليّة في الأدب والثّقافة، مقارنة ببقيّة ملوك الطّوائف الأخرى نذكر " إذ كان بنو عباد أعظم ملوك الطّوائف اعتناء بالأدب قدر اعتنائهم بالسياسية والحُكم، وكان بلاط إشبيليّة مسرحا رائعا للشّعراء والأدباء فاقت شهرته

السّياسيّة وقد اجتمع في بلاط بني عباد فحول الشّعراء، وقد اعتنوا بهم وقدّموهم واتّخذوهم ندماء ووزراء." (ابن الأبار، 1985م، ص356) ومن أشهرهم بالإضافة إلى ابن زيدون، عبد الجليل بن وهبون، وأبي الحسن الحصري، وابن حمديس...

- **ملوك بني الأفطس ببطليوس**

كان ملوك ببطليوس هم الآخرون قد اهتمّوا بالحركة الثّقافيّة والأدبيّة. فقد اشتهر بلاطهم ولا سيما في عهد حاكمهم المظفّر وابنه عمر المتوكّل بأنّه مجمع وملاذ للعديد من الشّعراء والأدباء والمثقّفين، من أشهرهم الوزير الشّاعر والكاتب الكبير أبو محمّد عبد المجيد بن عبدون، ومن أعظم ما اشتهر به تلك القصيدة الّتي رثى فيها أتباع بني الأفطس، لما أصابهم على أيدي المرابطين. بالإضافة إلى ابن عبدون ضمَ البلاط أيضا فقيه زمانه العلاّمة ابن عبد البر. وليس هذا غريبا عن حاكم عُرف بإنتاجاته الإبداعيّة ومن أشهر مؤلفاته الكتاب المسمّى بـ "المظفريّ" والذي ضمّ فيه ما يقارب عن خمسين مجلدا.

- **ملوك بني النّون بطليطلة**

قد ازدهر التّأليف العلميّ في عهد الأمير المأمون يحي بن إسماعيل، ويظهر ذلك من خلال بروز العديد من العُلماء منهم الزّرقالي في علم الفلك، وأبو عثمان سعيد بن محمّد بن البغونش في الرّياضيّات، وابن وافد في الطّبّ أمّا في العلوم الإنسانيّة، فنجد المرخ صاعد الطّليطليّ والحجاري، ومن النّحويين أبي الوليد الوقشي، ومن الشّعراء نجد ابن أرفع رأسه...

- **ملوك بني صمادح بوشقة والألمريّة**

اجتمع جمهرة من الشّعراء والأدباء في بلاط الصّمادح، من بينهم أبو عبد الله محمّد بن عبادة المعروف بابن القزاز أبو الفضل جعفر بن شرف، وابن الحداد الوادي، وآشي وغيرهم. يذكر أنّ المعتصم "يعقد المجالس بقصره للمذاكرة، ويجلس يوما لكلّ جمعة للفقهاء والخواص، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث. ولزم حضرته فحول الشّعراء" (ابن الأبار، 1958م، ص82). والكثير من العُلماء الآخرين الّذين اتّخذوا من البلاط مقرا ومسكنا لهم من بينهم أبي عبيد البكري الأديب، الّذين كان من الجغرافيين المسلمين الّذي نعته ابن الأبار بأنّه "من مفاخر الأندلس وهو أحد الرؤساء والأعلام وتواليفه قلائد في أجياد الأيّام" (ابن الأبار، 1985م، ص185)

إنّ ما يجمع بين مختلف ملوك الطّوائف أنّهم كانوا يتنافسون على اقتناء أنفس الكُتب. فكان للكتاب قيمة ماديّة ومعنويّة في تلك الفترة. وهذا العمل، كان له تأثير كبير في تقدّم الحركة الثّقافيّة والأدبيّة في هذا العصر من تاريخ الأندلس. هذا بالإضافة إلى ما ذكرنا سابقا من كثرة المجالس العليمّة، حتّى صارت عادة دوريّة في بلاط الحُكّام وخارجها "إذ كثرت كثرة لم يسبق لها مثيل فكان المعتضد بن عباد – حاكم إشبيليّة – يعقد مجلسه يوم الاثنين من كلّ أسبوع، وكان يوم الجمعة مجتمع المعتصم بن صمادح صاحب المريّة، وكذلك كان الأمر بالنّسبة لبقيّة ملوك الطّوائف الّذين مارسوا هذا النّشاط الاجتماعيّ المفيد" (بهجت، 1986م، ص42)

يذكر أيضا أنّه كان لـ "ولادة بنت المستكفي" صالونها الأدبيّ الخاصّ في قرطبة، وعرفت هذه المجالس بكونها تستقطب الأدباء والشّعراء لتنشيط المناظرات الأدبيّة، والمطارحات الشّعريّة الارتجاليّة. (الكحلوت، 2010م، ص75-76)

ولم يكن الاهتمام بالشعر أمرا نخبويّا خاصا بأعيان القوم فقط، بل صار محلّ اهتمام العّامّة من الشّعب. فجرى مجرى الماء على ألسنة السّكان المحليين للأندلس فـ "كان على كافة الألسن من جميع الطّبقات الاجتماعيّة سواء كانوا من التّجار أو الصّنّاع أو الفلاحيين أو النّساء أو الجواري" (الكحلوت، 2010م، ص75)

وصل الأمر إلى ذروته حتّى "قَلّ أنْ ترى من أهلها – مدينة شلب في الأندلس – من لا يقول شعرا ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاّح خلف فدانه وسألته من الشّعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منه" (الحموي، بلا تاريخ، ص357-385) حتّى صار العالم عندهم معظّما عند العامّة والخاصّة وللشّعر عندهم حظّا كبيرا.

ساعد هذا الجوّ على ازدهار الحياة الثّقافيّة بشكل عامّ والأدبيّ بشكل خاصّ خلال هذه الفترة. فخلقت بيئة خصبة لنمو الأخلاق الإسلاميّة وانتشارها بين الرّعيّة بالرّغم من انتشار الفتن والصّراعات والنّزاعات والتّناحر على السّلطة والّتي كان لها دور كبير في تفكيك المجتمع الأندلسيّ إلاّ أنّها كانت عاملا مُساعدا على التّمسّك بتعاليم الدّين الإسلاميّ.

خاتمة

إنّ الباحث في الشّأن الثّقافيّ عامّة والأدبيّ خاصّة والمطّلع من قريب أو من بعيد على الدّراسات المؤلّفات الأندلسيّة القديمة، ستصادفه جملة من التّساؤلات المتعلّقة بالحياة الفكريّة للأندلس، خاصّة خلال القرنيْن السّابع والتّاسع للهجرة فهذه الفترة – وإن كانت غير وضاءة سياسيّا – إلاّ أنّها كانت شعلة من الإنتاجات الثّقافيّة، ولاسيما الإنتاجات الأدبيّة، والّتي أشعّت على بقيّة الدّول الإسلاميّة الأخرى من خلال ذاك التّواصل الحضاريّ والمعرفيّ. وفي هذا ترسيخ لمبدأ أنّ الحضارة إنتاج إنسانيّ كونيّ فالفكر والمعرفة، إنتاج تُساهم فيه كلّ الحضارات.

إنّ تضافر عدّة عوامل هو الّذي ساهم في انتعاشه الحياة الثّقافيّة في الأندلس، وعلى رأسها رعاية أمراء وسلاطين الأندلس للعلم والمعرفة، من خلال تقريبهم للعلماء والمفكرين وحمايتهم لصرح العلم والأدب، بالإضافة إلى تشييدهم للمراكز الفكريّة، ولم يكونوا عالة على العلم بل كانوا هم أنفسهم أهل علم ومعرفة، إذ نجد من السّلاطين: الشّاعر، والأديب، والكاتب، والفقيه، والأديب في الوقت نفسه.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم خليل، السّامرائي وآخرون، (2000). تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة.
2. ابن الأبار، (1985)، الحلّة السيراء، تح: حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار المعارف.
3. ابن الصاعد، الأندلسي، (1913) طبقات الأمم، بيروت، لبان، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.
4. ابن سعيد، المغربي، (1995)، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، ط3، القاهرة، دار المعارف.
5. ابن عذارى المراكشي، (2013)، البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الأندلس، تح: محمود بشار عواد، بشار عواد معروف، ط1، تونس، دار المغرب الإسلامي.
6. أحمد، هيكل، (2013)، الأدب الأندلسيّ من الفتح حتّى سقوط الخلافة، ط18، مصر، دار المعارف.
7. التلمساني، المقري، (1997)، نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عبّاس، ط1، بيروت، لبان، دار صادر.
8. أنخل جينثالث، بالنثيا، (بلا تاريخ)، تاريخ الفكر الأندلسيّ، تح: حسن مؤنس، بور سعيد، مصر، مكتبة الثقافة الدينيّة.
9. حسن يوسف، دويدرا، (1994)، المجتمع الأندلسي في العصر الأمويّ، القاهرة، مطبعة الحسين الإسلاميّة.
10. راغب السّرجاني، (2011)، قصة الأندلس من الفتح إلى السّقوط، ط1، القاهرة، مؤسسة إقرأ.
11. شوقي، ضيف، (1989)، عصر الدول والإمارات في الأندلس، مصر، دار المعارف.
12. عبد العزيز، عتيق، (بلا تاريخ)، الأدب العربيّ في الأندلس، بيروت، لبنان: دار النّهضة العربيّة.
13. عبد المجيد نعنعي، (1983)، تاريخ الدّولة الأمويّة في الأندلس، بيروت، لبنان، دار النّهضة.
14. عمر الدّقاق، (1975)، ملامح الشّعر الاندلسيّ، بيروت، منشورات دار الشّروق.
15. محمد عبد الله، عنان، (1997)، دولة الإسلام في الأندلس دول الطّوائف منذ قيامها حتّى الفتح الرّابطيّ، ط4، القاهرة مكتبة الخانجي.
16. مصطفى منجد، بهجت، (1986)، الاتّجاه الإسلاميّ في الشّعر الاندلسيّ في عهدي ملوك الطّوائف والمرابطين، ط1، بيروت، مؤسسة الرّسالة.
17. ياقوت، الحموي، (بلا تاريخ)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر.
18. يوسف شحدة، الكحلوت، (2010)، الأخلاق الإسلاميّة في الشّعر الاندلسيّ عصر ملوك الطّوائف، غزة، الجامعة الإسلاميّة.